

إضاءة حول مقالة إدوارد سعيد الأخيرة

أ.د. فؤاد عبد المطلب

شكرًا للدكتور شفيق النوباني على نشر مقالة إدوارد سعيد الأخيرة "نافذة على العالم" وجهوده في المجلة، وآمل أن يسمح لي بهذه الإضاءة التي لا تخلو من انطباعات ذاتية وموضوعية، لعلها تكون إجابة من نوع معين على السؤال الكبير: هل تبتعد مقالته هذه كثيرًا عما قدمه من أفكار في كتاب الاستشراق؟ لقد ولدت ظاهرة الاستشراق بوصفها مجالاً علمياً بفعل اهتمامات كبيرة أولتها أوروبا، وخاصة فرنسا وبريطانيا، لبلدان الشرق، وأرخ العلماء لهذا الاهتمام الغربي في بلدانهم ببداية الحملة النابليونية على مصر، لكن في إطار اهتمام الغرب بالشرق عمومًا تمهيدًا لهجوم استعماري عليه، هذا على الرغم من أن البدايات ترجع إلى القرن السادس عشر الميلادي وربما قبل ذلك. وقد مرت الآن أكثر من أربعين سنة على ظهور كتاب الاستشراق، وظهرت دراسات ومراجعات كثيرة له تضمنت قراءات مختلفة تتأمل في إرث نص إدوارد سعيد الأساسي الذي نُشر أول مرة عام ١٩٧٨، وتناقش السجلات والأفكار التي قدمها، بهدف دراسة استمرار إسهام كتابه المؤسس في دراسات ما بعد الاستعمار والتفكير فيما يمكن أن نتعلمه من الكتاب اليوم.

وقد ثبت مع مرور الأيام أن الأفكار التي حملها كتاب سعيد واسعة الأفق، وأهم من أن يكون قد عفا عليها الزمن، من حيث أنها تعدّ تفصيلاً دقيقاً ونقداً للطريقة التي تعمل من خلالها وسائل معرفة العالم المستعمر كإستراتيجية للسيطرة عليه. فقد كان سعيد دائماً يقدم ودرجات مختلفة تتناسب ودرجات التوتر في السياسة الأمريكية نقداً صريحاً للمؤسسة الأميركية التي تسعى إلى الهيمنة ليس فقط على الفرد وتدجينه، بل البلدان والشعوب تحت شعارات دعائية براقّة؛ مثل الواجب أو الأمن القومي وغيرها من الشعارات التسويغية المزيفة. في حين كان يجري نوع من الانحياز والتملك والسيطرة عبر استخدام متهور وخطير للقوتين السياسية والعسكرية. فقد كتب إدوارد سعيد عن كتابه الاستشراق (مقدمة الطبعة الخامسة والعشرين): "أردت في الاستشراق أن أعتمد على النقد الإنساني لتوسيع مجالات النضال الممكنة، والاستعاضة عن فورات الغضب الجامح التي تأسرنا بفكر وتحليل أعمق". وأوضح فيه أنّه بين المستشرقين من "يأتي إلى بلدان الشرق محملاً بانحيازين مسبقين: الأول ضدّ ثقافة أهل البلد، والثاني ضدّ تحرّر البلد ذاته من الاستعمار الغربي! المصيبة التالية أنه يتقصّد التعامي التأمّ عن أحداث كبرى عصفت بالبلدان التي يزورها". وبموضوعيته وسعة أفقه حيال النقد نشر سعيد كتابه "تعقيبات على الاستشراق" عام ١٩٩٦ وكان قد كتبه عام ١٩٩٤. وفيه ناقش بعض الآراء التي انتقدت كتاب الاستشراق وأعاد توضيح بعض مسأله، واستقبله وترجماته، واعترف ببعض الأخطاء التي تَصَمَّنَهَا كتابه. وفي الواقع، كانت فكرة الرد على

الانتقادات قد تجلت بوضوح في بحث مبكر له ظهر من خلال محاضرة في العام ١٩٨٤ أقيمت في جامعة بريطانية. وقد نُشرت لاحقاً كببحث مستقل في دورية مختصة، ومن ثم كأول مقالات كتابه الأنف الذكر تعقيبات على الاستشراق. وقد ظل سعيد مُصِرّاً على النظرة الإنسانية التي توالت الإشارة إليها في معظم هذه الأعمال وفي إحدى مقالاته الأخيرة "الإنسانية، السور الأخير في وجه البربرية"، الذي نشرته مجلة "لوموند دبلوماتيك" الفرنسية في أيلول ٢٠٠٣ أي قبيل رحيله بأيام، كما في مقالته الأخيرة التي كتبها قبيل وفاته ونشرت بُعيد ذلك تحت عنوان "نافذة على العالم" والتي كتب فيها أيضاً: "وتتركز الإنسانية في قوة الفردية الإنسانية والحس الذاتي لا في الأفكار المتلقاة والسلطة. كما يجب قراءة النصوص بوصفها نصوصاً مُنتجة تعيش على كافة أنواع ما أسميته بالطرق الدنيوية. بيد أن هذا لا يستبعد القوة، لأنني خلاف ذلك حاولت إظهار التلميحات وكذلك تراكب القوة حتى في أكثر الدراسات عمقاً. أخيراً، وما هو أكثر أهمية، أن الإنسانية هي المقاومة الوحيدة وأقول أيضاً النهائية التي نمتلكها ضد الممارسات والمظالم اللاإنسانية التي تشوه التاريخ الإنساني".

والحق أن إدوارد سعيد تاريخياً لا يبتعد في عمله ههنا "نافذة على العالم" عن كتابه الاستشراق ونظريته كثيراً، وإنما يستمر وفقاً لمحرركات الواقع في بداية الألفية الثالثة، التي اختلفت كثيراً عن أيام كتابه، والتي تمثلت في الحرب الأهلية اللبنانية وأحداث فلسطين وما نجم عن حرب تشرين في عام ١٩٧٣، فالرهانات كانت مصائر لبنان وفلسطين والصراع العربي الإسرائيلي والنفط والصراع الدولي على المنطقة، أما الآن فالأحداث المحركة تتمثل في العولمة وتبعاتها مثل غزو الولايات المتحدة لأفغانستان في ٧ أكتوبر عام ٢٠٠١، والعراق الذي استمر من ١٩ آذار/مارس إلى ١ أيار/مايو ٢٠٠٣ وأدى في النهاية إلى احتلال العراق عسكراً من الولايات المتحدة الأمريكية ومساعدة دول أخرى مثل بريطانيا وأستراليا وبعض الدول المتحالفة مع أمريكا.

وجاءت هذه المقالة بمنزلة التعليق على الأحداث الحارة وفق نظريته الأساسية، وقد صدرت ضمن سلسلة دراسات في الإسلام والشرق الوسط في موقع المجلة الإلكترونية، بتاريخ الخامس والعشرين من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣، أي في اليوم التالي لوفاة إدوارد سعيد، الذي توفي في الرابع والعشرين من أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٣، ومن ثم نشرت فيما بعد ضمن مجموعة مقالاته. ويشير سعيد في بدايتها إلى التعقيب الذي كتبه حول كتاب الاستشراق الذي يؤكد فيه على استمرار سوء فهم الشرق من خلال الصور المكونة عنه من المستشرقين. وكان سعيد قد كتب بعض أفكار هذا التعقيب أساساً في بحث تحت عنوان "إعادة دراسة الاستشراق" وألقاه في مؤتمر "سوسولوجيا الأدب" الذي انعقد في جامعة إسكس في المملكة المتحدة عام ١٩٨٤، والذي كان في حقيقة الأمر نقاشاً وردّاً علمياً حاسماً على منتقدي كتابه. وأظهر حينئذ براعة

فائقة في عرض أفكاره وفي الرد بكفاية عالية على منتقديه الذين حضروا من جامعات بريطانية وأوروبية وعالمية.

وقد حالفني الحظ شخصياً بوصفي أحد طلبة الدكتوراه في الجامعة نفسها أن أحضر تلك الجلسة الغنية والمثيرة وأن أتحدث مع سعيد وأطلب نسخة من البحث لترجمتها، فوعدني بذلك وحصلت عليها حقاً، مطبوعة على الآلة الكاتبة، من أستاذنا في قسم الأدب الدكتور بيتر هيوم، أحد منظمي المؤتمر آنذاك مع أستاذنا الراحل فرانسيس باركر، إذ تضمنت بعض التصويبات الطباعية المكتوبة بقلم سعيد. وقد قمت بترجمة البحث لاحقاً ونظراً لصعوبته كان عليّ التريث لمراجعته قبل نشره. وفي أثناء ذلك التريث نُشر هذا البحث مترجماً إلى العربية مرتين: الأولى ضمن مجموعة مقالات والثانية بصورة مستقلة. لكن الترجمتين زادتا من عزيمتي على إنجاز الثالثة التي تحاول أن تتجاوز الأولى والثانية. وفي نهاية جلسة المؤتمر تلك كانت ثمّة مناسبة طيبة لي بالتحدث إلى الدكتور أنور عبد الملك عقب الانتهاء من إلقاء بحثه المميز والموسع "أزمة الاستشراق"، والذي راح بدمائة عالية محببة يسأل عن رأينا كطلبة في حديثه، وكان يجاني زميلي أحمد توفيق الذي جاء من جامعة غلاسكو - إسكتلندا (جامعة العلوم التطبيقية في عمان) لحضور الجلسة على ما أذكر. كان بمنزلة سؤال الأستاذ الكبير لطلبته المهتمين. أعاننا الله على الإجابة وأثنينا باحترام كبير على كلام الأستاذ فقد كنا لا ندرك وقتئذ الأبعاد الكاملة لما تحدث به. وكان بحث د. عبد الملك مكتوباً بحماس كبير وظهر أول مرة في منتصف الستينيات وأثار جملة من التعليقات والآراء النقدية، إذ كان يعبر فيه عن مبادئ يعتنقها بقوة. ومع ذلك بقي بحثاً رصيناً ضمن حدود النقاش العلمي، ويستند استناداً واضحاً إلى دراسة متأنية لا تتعاطف مع كتابات المستشرقين. وبدا د. عبد الملك مُستعداً لأن يسلم بأن الاستشراق ربما لا يكون شراً أساساً، أو بعض المستشرقين يمكن أن يكونوا هم أنفسهم ضحاياه. وراح يشير في أثناء حديثنا معه إلى الاهتمام بما يقوله الأستاذ الواقف على يمينه ويقصد سعيد. ومن الطريف هنا أن الأستاذ أحمد توفيق راح يتحدث مع سعيد بلغة إنجليزية عالية فرد سعيد بذكاء وبعبارة ولهجة عراقية صرفة: أنت عراقي لماذا لا تتحدث معي بالعربية... لم يحالفني الحظ في نشر ترجمة بحث سعيد المنتهية منذ مدة طويلة، لأنها ذهبت مع كثير من الأوراق المسودة والكتب في أعقاب الاجتياح الهجري لأجزاء من البلاد الذي عمل على نهب وحرق وصب الزيت على كل ما وجده أمامه. بيد أنني نجحت بترجمة البحث الذي ألقته "جاكلين كي" في المؤتمر ذاته، وهي الباحثة التي لم يسلم سعيد من انتقاداتها مع عدد كبير من العاملين في مجالات استشراقية عدة، وجلّهم من المعادين في نظراتهم لسعيد، وفعلاً نُشر البحث بعدها تحت عنوانه الأساسي "إمبريالية الإسلام وخلق بعض الأفكار عن أوروبا". كما قمت بتعويض خسارتي بنشر "إعادة دراسة الاستشراق"، بترجمة دراسة مطولة مهمة نشرها سعيد في شتاء ١٩٧٩ في جامعة ديوك الأمريكية، وصدرت ترجمتها العربية مؤخراً في كتاب في الكويت عام ٢٠١٩ تحت عنوان "الصهيونية من

وجهة نظر ضحاياها". يُظهر سعيد بوضوح في مقالته احترامه لشعوب المنطقة التي تسعى جاهدة لتجاوز التحديات الراهنة، وهي الشعوب نفسها التي رحنا من أبراج عاجية ننتقدها ونتهمها بالغباء والعماء والانقياد وغياب الإرادة وفقدان النظرية الثورية بسبب قيامها في وجه الأنظمة "التقدمية" التي تحارب الرجعية والاستعمار والصهيونية.

يبد أن سعيداً أيضاً يركز النظر في مقالته على مخاطر الحرب على العراق ونتائجها، ولا يخفي انتقاداته الشديدة والجريئة للإدارة الأمريكية بجناحيها السياسي، من صقور المحافظين الجدد، وأفراد وزارة الدفاع الذين لا يعرفون عن المنطقة وشعوبها شيئاً وراحوا يتعاملون بمنتهى السطحية مع واقع الشرق الأوسط المعقد والمضطرب. ويخص في هجومه المستشارين برنارد لويس وفؤاد عجمي، واللذين خاض معهما وضدهما سجالات عدة، ولا سيما برنارد لويس الذي لم يترك مناسبة تفوته دون توجيه نقده اللاذع لإدوارد سعيد. وقد أفرد فصلاً كاملاً في كتابه الإسلام والغرب يتناول سعيد وبخاصة كتابه الاستشراق بالنقد العنيف مطولاً. ومن الواضح أن سعيد يعود إلى الأصول الأولى لقراءاته المقارنة في النظرية الألمانية والدراسات الإيطالية وفق اللغة والاتجاه "الإنساني" كما أسماه الذي راح يذكره ويؤكد جدواه بوضوح تام. وعلى الرغم من قصر المقالة فهي تمثل جماع القول فيما يخص نظرة سعيد حيال مهمة المستشرقين السياسية، وللحرب التي شنتها الولايات المتحدة على العراق ومن تحالف معها من الدول تحت غطاء مزيف ومزاعم باطلة، وتبدو بجلاء جزءاً موسعاً ولاحقاً في مقدمة كتابه للطبعة الخامسة والعشرين التي كتبها بشهور قليلة قبل وفاته، وظهرت في مايو/أيار عام ٢٠٠٣.

المجلة الدولية لدراسات اللغة العربية وآدابها

